المستوطنون اليهود وبين الاعمال الهدامة التي صدرت عن الاحزاب العربية من خلال انغماسها في الخلافات التافهة والتناحر الاناني .

وأخيرا ، حيال ادراكه لقيام « العدو » على التنفيذ الهادىء لخطة مرسومة بعناية فائقة بغية احتلال فلسطين ، وفي ازدياد وعيه للنقص الذي يعتري رد شعبه على التحدي ، وجد الشاعر العربي نفسه عالقة بين عالمين متصارعين : عالم من التفاؤل القائم على احساسه بعدالة قضيته ، وعالم الواقع العاجز عن تحقيق تفاؤله ، نظرا لما يعتريه من فساد وانانية ، وللقيم البالية التي تسوده . فهو يبدو ، من جهة ، مدفوعا بروح العزيمة المصممة على الصمود بوجه العدوان الاجنبي الجديد ، يحركه ايمان صوفي بالنصر النهائي لقضيته في فلسطين . ومن جهة ثانية ، تجتاحه رؤيا نبوئية ومحزنة لاقتراب حدوث النكبة . ان الشعراء الفلسطينيين وغير الفلسطينيين على السواء كانوا ذا أثر في استنباط رؤيا مأساوية للتطورات المنتظرة . فالجواهري ، وربما كان اكبر الشعراء الاحياء من المدرسة التقليدية ، وغالبا ما اشتهر بأبياته التنبوئية ، تنبأ بضياع فلسطين منذ ما ينيف على ثلاثين عاما(١٧). لكن بما ان الشاعر الفلسطيني امتاز عن غيره من الشعراء العرب بالعيش الفعلي وسط الاحداث الجارية في بلده ومعاناة هذه الاحداث ، فان هذه الرؤيا المأساوية تتحول لديه الى هاجس يستحوذ على نفسه والى سمة تميز شعره . فالشاعر عبد الرحيم محمود (توفي ١٩٤٨) القى قصيدة أمام الامير سعود بن عبد العزيز أثناء زيارة هذا الاخير لفلسطين عام ١٩٣٥ ، وتصور فيها احتمال ضياع المسجد الاقصى(١٨). فقال مخاطبا الزائر :

المسجد الاقصى أجئت تزوره ... أم جئت من قبل الضياع تودعه ؟
وغدا وما أدناه لا يبقى سوى ... دمع لنا يهمى وسن نقرعه

ان هذا الشاعر المؤمن بتضحية الذات في سبيل قضيته القومية لاقى حتفه عام ١٩٤٨ في معركة دارت رحاها بالقرب من القدس . وكأننا به قد وفى بالقسم المتجسد في قصيدته « الشهيد » والتي يبدأ مطلعها كالآتي(١٩):

ساحمل روحي على راحتي ... وألقي بها في مهاوي الردى
فاما حياة تسر الصديق ... واما ممات يغيظ العدا

أما طوقان فقد وضع أمام أبصار بني وطنه رؤيا عن يوم أسود ، يوشك وقوعه لتضيع معه أرض الوطن . وقصيدته الاستهزائية بعنوان « أنتم » ، والتي يخاطب بها زعماء فلسطين ، ربما كانت خير تعبير عن مرارته وخوفه من المستقبل(٢٠). فهو يقول :

انتم المخلصون للوطنية ... انتم الحاملون عبء القضية
انتم العاملون من غير قول ... بارك الله في الزنود القوية
وبيان منكم يعادل « جيشا » ... بمعدات زحفه الحربية
و « اجتماع » منكم يرد علينا ... غابر المجد من فتوح أمية
وخلاص البلاد صار على الابوا ... ب وجاءت اعياده الوردية
ما جحدنا أفضالكم غير انا ... لم تزل في نفوسنا أمنية
في يدينا بقية من بلاد ... فاستريحوا كي لا تطير البقية

وكطريق للخروج من هذا المأزق لم يكن أمام الشاعر من بديل سوى الالتفات صوب القوة المادية . ان عبثية الحجج والمفاوضات أو البيانات قد تبرهنت بما لا يرقى اليه الشك . وما تستدعيه الحاجة الان هو الاعمال البطولية ، ولا سيما تلك البطولات التي يجسدها كل من أبطال الماضي وقدوات الحاضر في الاستشهاد . كما برزت ، بالاضافة الى الشخصيات المعينة كأمثلة للبطولة ، صورة الشهيد كما رسمها عبد الرحيم محمود ، وصورة الفدائيين التي رسمها طوقان في فترة باكرة ترجع الى سنة ١٩٣٠(٢١).